الفصل الخامس عشر

العقلية البدائية

لا شك أن «ليفي بريل» ***Lévy Bruhl*** كان من أبرز السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين دراسة «للمنطق البدائي» وأكثرهم عناية وانشغالاً بطبيعة العقل البدائي، وأغزرهم مادة في هذا الميدان.

لقد أثار مشكلة رئيسية من مشكلات المنطق، تلك هي مشكلة «قوانين الفكر» التي عالجها على نحو اجتماعي، وفسَّر قوانين الفكر البدائي استناداً إلى ما اسماه «بقانون المشاركة» ***participation***.

لقد تلمس ليفي بريل السبيل إلى حقيقة المنطق البدائي عن طريق دراسة اللغة البدائية وأجروميتها حتى يتحقق من طبيعة (التصورات) عند البدائيين - كيف يفكرون؟ وكيف يعبّرون عما يفكرون فيه؟ وما هي طبيعة التصورات التي يتميز بها «المنطق البدائي»؟

لقد استخلص بريل من دراسته لعدد كبير من لغات هنود شمال أمريكا أن اللغة البدائية تتضمن في ذاتها الكثير من التفصيلات الجزئية المشخصة، تلك التي لا تلتفت إليها لغاتنا المتحضرة، إذ إنها لغة التجريد والمعاني المجردة، لأنها غالباً ما تتجرد عن شتى التفصيلات الجزئية، تلك التي تحتويها ضمناً لا صراحة، ودونما حاجة إلى التعبير عنها. على العكس من اللغة البدائية التي تتميز بأنها مشخصة وذلك لشدة ارتباطها بعالم «المشخصات» بتفصيلاته، وابتعادها عن عالم «المجردات». بمعنى أن العقلية البدائية، إنما تهتم بالتعبير عن تفصيلات عينية تتركها لغاتنا المتحضرة مضمرة أو غير معبّر عنها.

ولقد شايع ليفي بريل هذا الرأي بصدد مسألة اللغة، عالم اجتماع أمريكي معاصر هو «فرانز بواس» *Franz Boas* وهو أحد أصحاب الاتجاه الأنثروبولوجي الثقافي في علم الاجتماع المعاصر. فلقد درس فرانز بواس اللغات البدائية الهندية، وميز بينها وبين اللغات الأوروبية الحديثة، باستخدامه للمنهج المقارن. فوجد «بواس» أن اللغات البدائية الهندية تتميز بأنها مشخصة كما يغلب عليها عدم التجريد، على عكس ما هو موجود في اللغات الحديثة. فمثلاً للتعبير عن معنى الجلوس تحاول اللغة البدائية أن تتكلم عن «حالة الجلوس» في ذاتها، بالتعبير عن كيفيتها المشخصة أو المرئية[1].

إن علو شأن الفكر - في رأي بواس - إنما يستند إلى اللغة، كما أن سمو الثقافة وارتقاءها يعود على تلك اللغة بالثراء. ولذلك كان الاحتكاك الثقافي عاملاً أساسياً في تطوير اللغة ونموها، إذ إن اللغة الهندية الحديثة باحتكاكها بالثقافات الأوروبية قد أفادت إلى حد كبير مما جعلها تصبح على درجة كبيرة من التجريد. ومعنى ذلك أن الاحتكاك اللغوي هو الأصل الثقافي في تقدم الفكر واللغة. فالبدائي مثلاً لا يستطيع أن يتصور فكرة «الجوهر» أو «فكرة الوجود» إلا إذا اتصل بثقافات أخرى متقدمة. ولهذا السبب يؤكد بواس على أثر الانتشار الثقافي في ثراء اللغة وتقدم الفكر والمنطق[2].

فالمنطق البدائي إذن - كما يبدو في لغته - إنما يهتم بالتفصيلات اللغوية المشخصة ويتميز بالإضافات المرئية الزائدة ونقص القدرة على التنصيف والتجريد، على عكس الحال تماماً بالنسبة للمنطق المتحضر الذي يتميز بالتعميم والتجريد ووضوح التصورات وحذف الإضافات والزوائد[3].

هذه هي النتائج التي جاء بها فرانز بواس بدراسته الحقلية المقارنة في «جزيرة فانكوفر» *Vancouver Island* وهي تتفق تماماً مع ما أدلى به ليفي بريل بصدد مسألة اللغة والمنطق، على اعتبار أن المنطق تابع من توابع اللغة، من حيث إن اللغة تعبّر عن التصورات العامة التي يستخدمها المنطق في قضاياه.

---

(1) Franz Boas: The Mind of Primitre Man, The Macmillan Company, New York 1911, p.149.
(2) Ibid., pp. 150-151.
(3) Ibid., p. 152.

سمات العقلية البدائية وتصوراتها العامة

وقد انتهى ليفي بريل من خلاصة دراساته «للعقل البدائي» في ضوء لغته، إلى أن هناك نوعين من المنطق، أحدهما للإنسان المتحضر الذي تتميز لغته بالتعقيد والتجريد، وثانيهما للإنسان البدائي الذي تتميز لغته بأنها مشحونة بالكثير من الأوضاع المشخصة.

ويؤكد ليفي بريل في كتابه (الخوارق الطبيعية لدى العقلية البدائية)، أن البدائي لا يميز بين ما هو «عادي» مألوف، وبين ما هو «خارق للطبيعة»، كما أن غير العادي لا يثير دهشة البدائي بقدر ما يثير خوفه - بتأثير القوى الغيبية الخفية التي سببت وجود هذا الشيء «غير العادي». فالبدائي ينفعل أكثر مما يدهش، ويؤمن بالسحر الأسود الذي يسبب الموت، وهو يرفع السحر عن طريق الماء والنار، فكان يحرق سرير الميت مثلاً حتى يتطهر البيت.

وتتميز «التصورات البدائية» عند ليفي بريل بأنها غيبية، ومن ثم فهي تختلف كل الاختلاف عن تلك التصورات التي نجدها لدى الشعوب المتحضرة. وفي ضوء تلك المقدمات العامة، وبصدد «مسألة التصورات» بالذات يتساءل ليفي بريل.. هل نستنتج أن «التصورات البدائية» تخضع من حيث صورتها ومادتها لمنطق آخر يختلف كلية عن منطق الإنسان المتحضر؟

لقد أجاب ليفي بريل عن تساؤله هذا بالإيجاب، وحاول التدليل على صحة هذا «الفرض»، فقام بدراسات عديدة، وجمع الكثير من الشواهد والوقائع التي استقاها من رواد الشعوب البدائية وعلماء وصف الأجناس. وقد استنتج ليفي بريل ما يؤيد صحة فرضه، وما يؤيد نظريته العامة التي تذهب إلى أن هناك منطقاً سابقاً للإنسان يتمثل في «المنطق البدائي» يتحقق في بنية العقلية البدائية التي تتمايز في رأيه عن بنية الفكر المتحضر.

وهكذا أراد «ليفي بريل» أن يشرّع قانوناً للعقل البدائي بحيث يصدق على كل مظاهره وأحواله الغيبية، وعلى سائر العلاقات التي تربط «الذات البدائية» بعالم الموضوعات التي تحيط بها.. ذلك العالم الغريب الذي حار في فهمه الفكر البدائي فوقف إزاءه مشدوهاً لما يكتنفه من طلاسم وأسرار. وفي كلمات دقيقة

حدد ليفي بريل في كتابه (*L'âme primitive*) ملامح ذلك العالم وموقف العقل البدائي منه، حيث يقول: «عند هذه العقلية، إنما توجد تحت الصور المختلفة التي تأخذها الكائنات والأشياء في الأرض والهواء والماء، وتتخللها أيضاً حقيقة بعينها مهمة، وهي أنها واحدة وكثيرة، مادية وروحية في آن واحد».

يتضح لنا من هذا النص أن العقلية البدائية تتسم «بعدم التمييز»، لأنها تخلط بين الواحد والكثير، وتمزج بين المادي والروحي، كما يتبين لنا أيضاً من هذا النص كيف يقف البدائي أمام عالم الظواهر والموضوعات على اختلاف صورها، وكيف يشاهد التفكير البدائي الساذج عالمه الموضوعي-الطبيعي ببحره وبره، وبسمائه وهوائه، ويواجه واقعه الاجتماعي في أرضه وحيوانه ونباته. وإذا كان هذا هو واقع البدائي، فكيف يفسّره، ويؤوله، وهل يعتبره واقعاً موضوعياً على ما يفعل الإنسان المتحضر؟

يجيب ليفي بريل بأن الفكر البدائي قد شيد لنفسه عالماً رمزياً غامضاً، انغلق فيه الإنسان البدائي على ذاته، فلم يعد إنساناً يواجه «وجوده» مباشرة، أو يرى «واقعه» وجهاً لوجه، بل يراه في صور، ويشاهده في رموز، يراه منعكساً في مرآة نفسه، تلك التي تتألف من شبكة معقدة استقاها من مجموع تجاربه الغيبية.

وقد كشف لنا ليفي بريل عن وجهة نظره تلك في كتابه الذي نشره في هذا المعنى، حيث أوضح فيه تلك النزعة الرمزية التي غلبت على الفكر البدائي، فذكر لنا أن واقع البدائي هو واقعه الغيبي، وأن عالمه هو عالم الرموز، تلك التي تتميز بأنها غير معقولة. ويرجع السبب في عدم معقوليتها، إلى أن الفكر البدائي قد أحاط نفسه بأغلفة كثيفة من الغيبيات، وبطبقات متراكمة من الرموز، تلك التي حجبت عنه كل واقع في ذاته.

قانون المشاركة

وأغلب الظن أن هذا هو الدافع الذي من أجله أراد ليفي بريل أن يُقنن للعقلية البدائية قانوناً، بحيث يفسّر طبيعة تصوراتها وأحكامها منطقية كانت أو وجدانية. فقد وجد ليفي بريل من خلال دراساته التي استقاها من رواد الشعوب البدائية أن هناك عنصراً معيناً بالذات يغلب على الفكر البدائي برمته، وأن هناك طابعاً عاماً

يميز كل حالاته المنطقية من حيث صورتها ومادتها، بحيث تتضمن كل حالة من تلك الحالات المنطقية نوعاً من المشاركة بين عالم الذات البدائية من جهة، وعالم الموضوعات وما يرتبط بها من تصورات جمعية من جهة أخرى.

واستناداً إلى ذلك الفهم أطلق ليفي بريل ما أسماه بقانون المشاركة باعتباره قانوناً عاماً للعقلية البدائية، يفسّر كل تصوراتها ويصدق على كل حالاتها العقلية ومظاهرها الوجدانية جميعاً. ويقول ليفي بريل في تحديد صيغة هذا القانون الذي قد اصطنعه: «إنني أطلق قانون المشاركة على المبدأ المميز للعقلية البدائية الذي يحكم الروابط وسوابق الروابط التي تربط التصورات». في ضوء هذا القانون يتضح لنا كيف أراد ليفي بريل أن يضع تعميماً لسائر التصورات الجمعية البدائية، وبفضل هذا القانون أيضاً نستطيع أن نسبر غور العقل البدائي، وأن نتعرف على طبيعة معاييره المنطقية ومقاييسه العقلية، كما يفسّر لنا (قانون المشاركة) على أي صورة يتفهم الفكر البدائي الساذج حركة الظاهرات الطبيعية من حوله، وكيف يتعقل «مبدأ العلية» الذي يفسّر تتابع الأحداث والوقائع الجزئية التي تقع تحت بصره وسمعه... وكيف يتصور البدائي «هوية الأشياء» وذاتية بني البشر.

ذهب ليفي بريل إلى أن العقلية البدائية تتصور الأشياء والكائنات بطريقة غريبة، إذ إن البدائيين لا يميزون بين الأشياء، بل ويخلطون بينها أشد الخلط، كما غفلوا عن مبدأ عدم التناقض الذي يتميز به منطق الفكر المتحضر، ولذلك كانت الأشياء والكائنات والظواهر حسب منطق الفكر البدائي يمكن أن تكون هي نفسها وشيء آخر في الوقت نفسه على حد قول ليفي بريل. يقول في ذلك: «إن العقلية البدائية تتصور الأشياء والكائنات والظواهر بطريقة غريبة لا يتقبلها فكرنا، فهذه الأشياء يمكن أن تكون هي نفسها وشيئاً آخر في الوقت نفسه». ومعنى ذلك أن ليفي بريل قد كشف عن طبيعة الأشياء وهويتها كما يتفهمها البدائي. فوجد أن تلك الأشياء قد تظل في مكانها دون أن تنتقل منه، وعلى الرغم من ذلك تكون مصدراً لقوى وتأثيرات تنبعث منها وتسري على أمكنة بعيدة[1].

---

[1] د. قباري محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة، الجزء الأول، (المنطق)، مرجع سابق، ص 115-117.

قانون المشاركة بين الذاتية وعدم التناقض

ولقد أطلق ليفي بريل على تلك الظاهرة التي يتميز بها منطق الفكر البدائي اسم مبدأ المشاركة، وهو ضرب من مبدأ الذاتية يطبقه البدائيون تطبيقاً موفقاً بسبب تلك المشاركة أو الذاتية العمياء التي تعطل مبدأ عدم التناقض. ومعنى ذلك أن البدائي لا يفهم المضمون المنطقي لحقيقة التناقض، فبالنسبة للعقلية البدائية، لا يحتم التناقض بين الواحد والكثير، وبين الذات والغير.. إن تأكيد أحد الطرفين يستوجب نفي الآخر، إذ إن هذا التناقض المنطقي الواضح، لا يهتم له البدائي كثيراً في رأي ليفي بريل، ولكن البدائي في رأيه إنما يؤمن بقوة المشاركة الخفية تلك التي توحّد بين الأشياء والكائنات، حيث لا يستطيع فكرنا أن يمزج أو يوحّد بينها.

ويقصد بتلك المشاركة (في زعم ليفي بريل)، اشتراك كل فرد من أفراد العشيرة البدائية في طبيعة طوطم معين بالذات، كأن يعتبر نفسه حيواناً أو طائراً، فمثلاً عند قبائل «ترومای» ***Trumai*** في شمال البرازيل، يؤكد الأفراد أنهم من سلالة حيوانات مائية، وتفخر قبائل ***Bororo*** وهي قبائل مجاورة «للترومای» أنهم ببغاوات حمراء. ولا يعني ذلك أنهم يعتقدون بالتحول إلى ببغاوات بعد الموت عن طريق التناسخ، أو أن الببغاوات ليست إلا أفراد القبيلة «متناسخة»، بل إن الأمر يختلف عن ذلك. ففي هذا الصدد يقول: إن الأفراد يؤكدون ببساطة أنهم ببغاوات في حالاتهم الراهنة، كما تؤكد دودة القز أنها كانت فراشة قبل أن تتحور.

إن الأمر عند قبائل ***Bororo*** يتلخص في اعتقادهم أنهم كائنات إنسانية، وهم في الوقت نفسه طيور أو ببغاوات ذات ريش أحمر.

لقد نبه ليفي بريل الأذهان إلى قيمة «قانون المشاركة» باعتباره تفسيراً لتلك الظاهرة. ويقول: «إن كل المجتمعات ذات الأصل الطوطمي تحمل تصورات جمعية من نفس النوع، كما يتضمن كل فرد من أفراد الجماعة الطوطمية هوية واحدة على صورة الطوطم الجمعي. أي الهوية عند البدائي هي هوية طوطمية ترتد إلى صورة الطوطم نفسه، وترجع إلى هيئة أو نوع الإله المعبود».

وعلى هذا الأساس كانت العقلية البدائية عند ليفي بريل عقلية غيبية تعتقد في قوى خفية أو علل سحرية تهيمن على حياته وتشارك فيها، إذ إن هناك نوعاً من

المشاركة بين الكائنات الإنسانية والحيوانية وبعض الظواهر الطبيعية كالبرق والريح، وتحدث هذه المشاركة في صور وأشكال مختلفة، إما بطريق الاحتكاك أو الملامسة، وإما بطريق الأفعال السحرية. واستناداً إلى هذا الفهم فإن (مبدأ المشاركة) عند «ليفي بريل» يرتبط أصلاً بفكرة العلة والمعلول في منطق الفكر المتحضر الذي يفسّر الظاهرات بعلاقاتها السببية، وبذلك يتبين لنا في النهاية أن فكرة المشاركة الغيبية تفسّر شكلاً من أشكال «العلية الغيبية»، كما وتحتل مكاناً مهماً في تشكيل المنطق البدائي.

ونظراً لما تتميز به «العقلية البدائية» من اعتقاد بالعلية الغيبية، وإيمان بفكرة المشاركة وبالهوية الطوطمية، ونظراً لإغفال العقلية البدائية لمبدأ (عدم التناقض)، وتعطيلها له، وعدم التزامها به، فقد أطلق عليها «ليفي بريل» اسم (العقلية السابقة على التفكير المنطقي) لذلك فهي قليلة التحليل، بل إنها تركيبية وغيبية في جوهرها، ولها تصوراتها الخاصة بالصيد والحرب، والمرض والموت. فهناك رقصات خاصة تمارس للتأثير على الأسماك كي تقع في الشباك بأعداد هائلة. والرقص هنا له معناه الغيبي فهو إحداث فعل سحري كي تقع الفريسة بتأثير تلك الطقوس. وهناك رقصات الحرب، وهي رقصات مقدسة، عبارة عن طقوس خاصة بمرحلة ما قبل الحرب، وتمارس هذه الطقوس الغيبية استعداداً لدخول ميدان القتال[1].

وينشأ المرض عند البدائي، من عمليات غيبية مضادة، أما أسباب الموت فلا شك أنها ناجمة عن السحر الأسود. إن عالم الموتى عند البدائي، لا ينفصل عن عالم الأحياء، حيث يمكن للساحر أن يتصل بعالم الأموات عن طريق الأرواح. ولذلك يؤمن العقل البدائي بالتناقض، إيماناً واضحاً. وعلى سبيل المثال، نجد أن الفكر المنطقي المتحضر، إنما ينظر إلى الكائن، على أنه إما حي، وإما ميت ولا وسط بينهما أو لا ثالث لهما.

أما بالنسبة للعقلية البدائية، فإن الكائن في تلك التصورية، وإن كان ميتاً، فإنه يحيا على نحو ما. فيشارك الكائن في عالم الأموات، كما يشارك في الوقت نفسه في مجتمع الأحياء.

---

[1] د. قباري محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص 119-121.

وبالنسبة للعقلية البدائية، ليس من المستحيل أن يظهر الحيوان في أشكال إنسانية، كما أنه ليس مما يثير الدهشة أو الخوف أن يتخذ الإنسان المظهر الخارجي للحيوان.

معنى السابق على المنطق

ولكن ماذا يعني «ليفي بريل» بهذا الاصطلاح المنطقي الجديد الذي اشتهر به وحده دون سائر السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين؟ يجيب ليفي بريل عن سؤالنا بقوله: «إنها ليست عقلية مضادة للمنطق، كما أنها ليست مقيدة بمعايير منطقية، وحين أسميها سابقة على التفكير المنطقي فإنما أعني فقط أنها لا تلتزم كما يفعل فكرنا بالامتناع عن التناقض. وإنها تخضع فقط لقانون المشاركة». فلم يقصد بذلك أن تلك العقلية لا تتقيد بأي معيار منطقي، أو بمعزل عن المنطق، ولكن بريل قد قصد بتلك العقلية السابقة على المنطق أنها لا تتقيد بما يتقيد به الفكر المتحضر من قيود، فلم يلتزم ذلك العقل السابق على المنطق بمبدأ عدم التناقض، بل إنه على العكس من ذلك قد التزم بمبدأ المشاركة، ذلك المبدأ الغيبي، الذي يفسّر حذر البدائي وحرصه على عدم ترك أي أثر من آثاره يستطيع العدو استخدامه لإيقاع الأذى به. إذ إن طعام البدائي وملابسه وآثار أقدامه، وقصاصات شعره، وقلامة ظفره، كلها أمور تتعلق بذاتيته أو «هويته»، وفي اعتقاده أن التأثير عليها عن طريق العمليات السحرية قد تؤثر في كيان الشخص نفسه. وعلى هذا الأساس يقول ليفي بريل: «لا يحتم التعارض بين الواحد والكثير، وبين الذات والغير، بالنسبة لتلك العقلية، أن تأكيد أحد الطرفين يستوجب نفي الآخر، فإن لذلك قيمة ثانوية لدى العقل البدائي».

يتضح لنا من هذا النص أن مبدأ «المشاركة الغيبي» لا يتفق أصلاً ومبدأ عدم التناقض، إذ إن هذا المبدأ الأخير يكون له في منطق التفكير البدائي قيمة ثانوية محضة.

إن الصور التي يؤلفها ويشاهدها الذهن البدائي ليست شبيهة بتلك التي يؤلفها ويشاهدها الذهن المتحضر، ومن ثم اعتقد البدائيون استناداً لمنطق المشاركة بأنهم صور لمثال حيواني أو نباتي، ومن هنا كان اعتقاد الـ*Bororo* بأنهم صور على مثال الببغاوات.

وينبغي في ختام استعراضنا لمساهمة ليفي بريل في ميدان الدراسات المنطقية البدائية، أن نقول إنها مساهمة رائعة لسبر غور الفكر البدائي، فليس من شك في أنه قد أضاف إلى المنطق مادة جديدة وطرق بمعالجته للعقلية البدائية ميداناً لم يتعرض له الفلاسفة، وافتتح بدراسته لمنطق الفكر البدائي باباً رحباً لم يلتفت إليه المناطقة.

obeikandl.com